المغرب في مواجهة التوسعية العثمانية

ق١٦ ـ مطلع ق١٧

القسم الثاني:

أ. د. محمد علي داهش(*)

إن إخفاق العثمانيين في ضم المغرب عسكريا، دفعهم إلى الالتجاء للعمل السياسي، ومحاولة زعزعة المؤسسة الحاكمة بإدخالها في صراعات داخلية، وتكررت الفرصة للتدخل، نتيجة التجاء بعض أولاد السلطان محمد الشيخ (المعتصم بالله عبدالملك، أبو العباس احمد) إلى الجزائر واستنبول هرباً من بطش أخيهم عبدالله الغالب الذي قتل ثلاثة من اخوتهم، لرفضهم البيعة له. وقد ادعى العثمانيون الوصاية على الحكم بعد رحيل السلطان المغربي محمد الشيخ لدعم الأمير عبدالملك، ومن هنا بدا التدخل العثماني في شؤون المغرب بهذا الاتجاه.

اصدر السلطان العثماني سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) مرسوما -ظهيرا- في أوائل صفر ٩٧٥هـ، الموافق ١٠ أيلول – سبتمبر- ١٥٦٧، وجّهه إلى السلطان المغربيّ عبدالله الغالب، أشار فيه إلى أحقية أخيه الأمير المعتصم بالله عبدالملك في الحكم. وممّا جاء في المرسوم السلطانيّ: (هذا مرسومنا الشريف العالي السلطانيّ، وامرنا المنيف السامي الخاقانيّ لازال نافذا في المشارق

(*) قسم التاريخ / كلية الآداب/ جامعة الموصل.

والمغارب... انه لا يخفى ان والي تلك الولاية (كذا) وحاكمها سابقا الشريف محمد انتقل بالوفاة (كذا) وصارت تلك الولاية في يد ولده عبدالله. لكن أهالي تلك الديار الجليلة لم يكونوا لفعله من الشاكرين، ولسره من الذاكرين، على ان من أولاد الشريف محمد... الشريف عبدالملك... أدام الله تعالى سعده، وانجح قصده، وكمّل دينه وديانته، وحسّن سرّه وسيرته. ولكونه أولى لضبط تلك الولاية من عبدالله ... وأهالي تلك البلدة يطلبونه للولاء عليهم يريدونه، وتنصيبه في تلك الولاية يحصل لأهليها الأمن والأمان ومزيد الرفاهية... فلا جرم قبل تاريخ هذا المنشور العالي والدي المرحوم المغفور له سلطان الغزاة والمجاهدين سلطان سليمان خان أسكنه الله في غرف الجنان، نصب المشار إليه أميراً لتلك الولاية، وانعم مرسوم شريفاً، فأرسل المشار إليه ذلك المرسوم إلى سدتنا العلية يطلب تجديده، فأعطيناه من سدتنا السنية منشورنا السني الخاقاني، وأمرنا المنيف واجب الاتباع أن تكونوا من فخر الأمراء المشار إليه على احسن حال، وأكمل اتحاد لرأيه السديد مطيعين ولفكره الصايب منقادين، لسانه لسانكم، ووجهته تقلبكم وقالتكم (كذا) لدخوله تلك الديار له معين ومظاهرين فيما يتعلق بالدولة والدين، وإجراء شرع سيد المرسلين صلوات الله عليه وسلامه. على أن أقصى مراد حضرتنا العلية أن تكون أهالي الإسلام ... من الأيام شرقا وغربا، بُعداً وقُرباً، في أيام دولتنا الفائقة على احسن حال واجمل مآل، آمنين مطمئنين فرحين ومستريحين لا خوف عليهم بمضمونه تحريرا في أوائل صفر سنة خمس وسبعين وتسعمائة)[1].

(١) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج ٨ ص ٣٧ ـ ٣٨.

لم يَردّ السلطان المغربيّ على مرسوم السلطان العثمانيّ سليم الثاني، لذا أرسل الأخير رسالة بدلاً من المرسوم كانت أكثر مودة وادعى إلى الوئام والمصالحة في أواسط جمادى الأولى ٩٧٦ هـ، الموافق ١٠ تشرين أول – أكتوبر ١٥٦٨، يطلب فيها أن يتنازل السلطان المغربيّ عن نصيب من ممالكه لأخيه المعتصم بالله عبد الملك. وبعد أن حمد الله وأثنى على السلطان المغربيّ بألقاب الاحترام والتقدير، لإصلاح ذات البين بينهما، قال: (... وبعد فهذا كتابنا الشريف الكبيريّ الأفخميّ ... الحسبيّ النسبيّ نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصابة العلوية ... السيّد عبد الله أدام الله سعده وانجح قصده، يعرف مضمونه الميمون، انه ورد إلى أبوابنا العليّة خلق الأمراء الكرام ذخر الكبراء الفخام ... أخوكم عبد الملك أدام الله تعالى علوه، مظهر الإخلاص والعبودية والانتماء (كذا) ... ويكون هذا الإخلاص مؤدياً لإصلاح ما بينكم، وسبباً يزيل الشقاق من بينكم، ومستلزماً لانتظام أحوال جمهور الأنام ومتضمناً رفاهية الخواص والعوام، فعيّن له لانتعاشه بعض ما في يَدكم من الممالك التي تحت حوزة حكومتكم، وانتقل إليكم من آبائكم الكرام حتى أن لا يكون بعد اليوم في ما بينكم من القتال والجدال والليام، ويكون الرعايا والبرايا الذين هم ودائع الله في تلك الأماكن في غاية الرفاهية والاطمئنان ... فلا جرم لا يخفى كذلك على علمكم أنكم من قديم الأيام، وسوابق الأعوام ممن اظهر الإخلاص والمودة نحو عتبتنا العلية الخاقانية، ومطيعاً منقاداً لسدتنا السنية السلطانية ... فلأجل إخلاصك، تُعيّن لاخوتك (كذا) المشار إليه شيئاً من الممالك الذي انتقل إليكم من آبايكم (كذا) الكرام ... وترعى حق الأخوة فيه، ويزيل ما بينكم من الشقاق والعناد، وتكونوا مجدين في حفظ البلاد وصون العباد، ويكون الرعايا والبرايا آمنين في أوطانهم منشرحين بحيث لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والله تعالى هو

الموفق بمنّه ويمنه، إن شاء الله تعالى، جرى ذلك في أواسط جمادى الأولى ٩٧٦ هـ)[٢].

ظل السلطان المغربيّ عبدالله الغالب غير مكترث بخطابات السلطان العثمانيّ، وفي الوقت نفسه لم يَسْعَ الأخير لضم المغرب عسكرياً على الرغم من استنجاد المعتصم بالله عبدالملك وأبي العباس احمد في الفترة اللاحقة. وكان سكوت العثمانيين عن ذلك بسبب هزيمتهم عام ١٥٧١ في معركة ليبانتو البحرية أمام التحالف الأوربي الذي تزعمته الكنيسة. وقد وضعت تلك المعركة حدا للخطر العثماني على المغرب.

وبعد سنتين من هزيمة ليبانتو، سعى العثمانيون إلى التقارب مع المغرب، وكان ذلك بعد إرسال السلطان المغربيّ رسالة يبشرهم فيها بمعاضدة المغرب لأهالي الأندلس في ثورتهم ضدّ الأسبان. وقد أرسل السلطان العثمانيّ سليم الثاني (أمراً) !! في أيلول – سبتمبر- ١٥٧٣، إلى الحاكم !! بولاية !! (فاس) يشيد فيها بجهود المغرب في معاضدة المسلمين في ثورتهم في غرناطة على الرغم من التقارب المغربيّ – الأسبانيّ. وجاء في نص الرسالة: (هذا امرنا الشريف العالي السلطانيّ لازال مطاعاً له ونافذاً بالعون الربانيّ، قد أرسلناه إلى جناب الاميريّ الكبيرىّ الأعدليّ... الأصليّ العربيّ الحسَبي النسبيّ نسل السلالة الهاشميّة... الحاكم العادل بولاية (كذا) فاس المحمية بحماية ملك الناس ينهى لعلمه، أنه قد ورد كتابه الذي حلى بالدر النظيم إلى سدتنا السنيّة السلطانيّة، وعتبتنا العلية الخاقانية ففضضناه وشممنا مخايل النصر من سطوره... وألفيناه متضمّناً ومحتوياً على ما مّن الله العليم ويسره للمعز الكريم من نصر المؤمنين، وقهر الأعداء

(٢) التازي، المصدر نفسه، ج٨ ص٣٨ ـ ٣٩.

المشركين، وإعلاء كلمة الدين المتين، وأجراء أحكام الشرع المبين، وبذل المقدور في معاضدة أهالي ولاية أندلس المحمية حماها الله من العاهات والبلية، حيث هبت نسمات النصر على جيوش الإسلام...). ثمّ يعود السلطان العثمانيّ في هذه الرسالة التي تظهر النظرة السابقة بكون المغرب (ولاية) عثمانيّة، إلى تأكيد ضرورة المودة والألفة بين الجانبين بقوله: ((فالمأمول منكم أن تكون المودة بيننا مرصوص البنيان وبنيان المحبة متينا (كذا) الأركان، يرفع مباني العدل والإنصاف، ويقلع أساس الجور والاعتساف، ويبذل جهدكم في إعلاء الشرع القويم، ورفع ألوية الدين المستقيم، وفتح أبواب البّر على البرايا، ونصب أعلام الرعاية، واصطياد القلوب باشتباك العواطف وانقياد النفوس بأزمة العوارف (؟) حيث أنام (كذا) حسن حمايتكم، وأقيم الأقوام في ظلّ رعايتكم فوصلوا إلى مانالوا في أيام دولتنا، ونالوا ما أملوا من حضرتنا فيدعون لصحايف سلطنتنا ودوام دولتنا وثبات... دائما أبدا سرمدا بصفاء الطوية، وخلوص البال ما دارت الأيام والليالي، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده))[٣].

من الحلّ السياسيّ إلى الحلّ العسكريّ:

أظهرت رسالتا السلطان المغربيّ والسلطان العثمانيّ، أن ثمة جنوحا نحو تأكيد التضامن الإسلاميّ في مواجهة العدو الأسبانيّ المشترك، وثمة رغبة عثمانيّة في إبقاء الوداد بين الجانبين. وجاءت وفاة السلطان المغربيّ في ٢٣ كانون الثاني – يناير – ١٥٧٤، وتولي ابنه محمد المتوكل (١٥٧٤-١٥٧٦) الحكم في المغرب، لتعيد ثانية العثمانيين للتدخل في شؤون المغرب من خلال أعماله

(٣) التازي، المصدر نفسه، ج٨ ص٤٠ – ٤٢.

واخوته. وقد ساعد على رجوع العثمانيين إلى سياستهم السابقة تجاه المغرب ثلاثة عوامل، **الأول:** طبيعة السلطان المغربيّ محمد المتوكل. **والثاني:** استمرار حضور المناوئين لسلطانه والمؤهلين اكثر منه لحكم المغرب و (الميالين) إلى العثمانيين وهما عماه المعتصم بالله عبدالملك في استانبول، وأبو العباس احمد في الجزائر. **والثالث:** هو قدرة العثمانيين في إعادة بناء أسطول بحريّ كبير يضم ٢٥٠ سفينة بعد هزيمة ليبانتو، وبداية تفوق عثمانيّ على الأسبان في تونس. هذه العوامل الثلاثة أعادت للعثمانيين طموحهم في ضمّ المغرب إلى دائرة نفوذهم في الوطن العربيّ.

كان السلطان محمد المتوكل فظّاً ظالماً مستبداً، فكرهه الشعب، وقد واصل سياسة التقرب من القوى الأوربية ومهادنتها، وفي الوقت نفسه كان عماه عبدالملك واحمد يسعيان إلى المساندة العثمانيّة. وكان عبدالملك يتمتع بالأهلية للحكم، نظراً لما عرف عنه من السجايا الحميدة، والشجاعة، والثقافة، والمعرفة بأحوال السياسة العالمية. وقد عاد عبدالملك بعد وفاة السلطان سليم الثاني، وتسلم السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) إلى تجديد طلبه. وفي الوقت نفسه كان العثمانيون يهيئون لحملة على تونس لطرد الأسبان. وقد لبى السلطان طلب عبدالملك بالانضمام إلى الحملة التي قادها سنان باشا، وتمكن العثمانيون من طرد الأسبان بعد معركة (حلق الوادي) عام ١٥٧٤، وإنهاء الحكم الحفصيّ، وفرض السيادة على تونس. وقد اخبر عبدالملك السلطان العثمانيّ بالانتصار قبل وصوله بالطرق الرسميّة. وعند رجوعه إلى استانبول، اكرم السلطان وفادته، ووجد عنده استعداداً لمساعدته في العودة إلى المغرب لانتزاع الحكم من ابن أخيه. لذا، أمر السلطان مراد الثالث واليه على الجزائر محمد بن صالح رايس أن يمده بما يحتاجه من

قوات وذخائر ومؤن، وبدأ عبدالملك يستعد من الجزائر للتوجه نحو المغرب أوائل عام ١٥٧٦[٤].

ويمكن الإشارة إلى عامل رابع اسهم في تقديم الدعم العسكري العثمانيّ لعبدالملك وأخيه أبي العباس احمد، وهو هدوء الأحوال في أوربا تجاه العثمانيين آنذاك، بسبب انشغال فيليب الثاني بثورات الأراضي المنخفضة ضده، وبالحروب القائمة بين الكاثوليك بزعامة فيليب والبروتستانت بزعامة ملكة بريطانيا، حيث عجلّ ذلك بمساعدة العثمانيين للأمير عبدالملك للعودة إلى المغرب واستلام الحكم.

ان المساندة العثمانيّة للأميرين عبدالملك واحمد جاءت بعد أن تعهد الاثنان للسلطان العثمانيّ مراد الثالث باتفاق شباط – فبراير – ١٥٧٦، بدفع مبلغ قدره (٥٠٠) ألف دينار ذهبيّ، والالتزام بعقد حلف مع العثمانيين لمهاجمة الأسبان، والالتزام بالتخلي عن ميناء العرائش المغربيّ للعثمانيين المقيمين في الجزائر، لاتخاذه قاعدة لانطلاق عملياتهم البحرية في المحيط الأطلسي. وقد وافق الاثنان على الشروط العثمانية، - وكان ذلك تكتيكا مرحلياً اقتضته الظروف لاستلام الحكم -، وتم تزويدهما بقوات عسكريّة بلغ عددها خمسة آلاف جندي وذخائر ومؤن[٥]. وقد اسهم الحضور العسكريّ العثمانيّ أفراداً وسلاحاً في انتقال التقاليد والنظم العسكرية العثمانية إلى النظام العسكريّ المغربيّ في الفترة اللاحقة التي

(٤) محمد الفاسي: إنقاذ تونس من الأسبان أواخر القرن العاشر الهجري، مجلة آفاق، العدد(٣)، أيلول – سبتمبر – الرباط ١٩٦٢، ص٧ – ٢١.

(٥) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج٨ ص٤٤.

أعقبت انتصار المغاربة في معركة "وادي المخازن" التي شاركت فيها قوات عثمانيّة ضدّ القوات البرتغالية المتحالفة مع السلطان المغربيّ محمد المتوكل(٦).

استطاع الأميران المغربيان وبمساندة القوات العثمانيّة دخول المغرب، ولم يستطع السلطان محمد المتوكل مقاومتهما، فدخلا العاصمة (فاس) في ٣١ آذار ـ مارس ـ ١٥٧٦، وهرب المتوكل إلى جبل (درن)، وعبثا حاول استرداد عرشه، فهرب إلى (طنجة) ومنها إلى (لشبونة) عاصمة البرتغال حيث اجتمع بالملك البرتغاليّ دون سباستيان واستصرخه على عميه عبدالملك واحمد وعلى العثمانيين. كما استعان بالأسبان لمساعدته. وبدخول المعتصم بالله عبدالملك فاسا، فقد بويع سلطانا على المغرب، وبدأ يتظاهر بالدعوة للسلطان العثمانيّ مراد الثالث على المنابر، لكنه سرعان ما صرف القوات العثمانية، ودفع التعويضات المالية التي التزم بها من قبل للسلطان العثمانيّ(٧).

---

(٦) محمد بن تاويت: وثيقتان هامتان عن حركة وادي المخازن، مجلة دعوة الحق، العدد(٨)، آب ـ أغسطس، ١٩٧٨، ص٤٨؛

إبراهيم حركات: أحمد المنصور الذهبي كرجل دولة، مجلة دعوة الحق، العدد(٨)، آب ـ أغسطس ـ ١٩٧٨، ص٦١؛

سعيد أعراب: حركة وادي المخازن واندحار الصليبية بالمغرب، مجلة دعوة الحق، العدد(٨)، آب ـ أغسطس ـ ١٩٧٨، ص٩٠ ـ ٩٦؛ عبد العزيز بن عبد الله: تاريخ المغرب، مكتبة السلام، (الدار البيضاء، بلا)، ص١٨٦؛

مدينة، المصدر السابق، ص١٠٨ ـ ١١٠.

(٧) انظر بالتفصيل عن الأحداث:

الناصري، المصدر السابق، ج٥ ص٦١ ـ ٦٤؛ كريم، المصدر السابق، ص ٩٧ ـ ١٢١؛ التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج٨، ص ١٢، ٤٤؛ الزبيري، المصدر السابق، ص٤٦ ـ ٤٧؛ ابن عبد الله، العرش المغربي، ص٥٤؛ المدني، المصدر السابق، ص٤٠٢ ـ ٤٠٤.

بعد استقرار الحكم في المغرب، أرسل السلطان العثمانيّ مراد الثالث إلى السلطان المغربيّ عبدالملك، رسالتين بتاريخ ٢٨ ربيع الأوربي ٩٨٥هـ، موافق ٩ حزيران – يونيو – ١٥٧٧، وفيهما يَمُن السلطان العثمانيّ على السلطان المغربيّ بما أسداه إليه من مساعدة، ويَعدُه واليا من قبله على المغرب، ويطلب إليه أن يظلّ منتسباً إلى الباب العالي، وأن يبقى على علاقات حسن الجوار مع والي الجزائر حسن باشا، وأن يتعاونا في صدّ الغزاة الأوربيين على ديار الإسلام. وجاء في الرسالة الأولى(هذا كتابنا الشريف العالي السلطاني وخطابنا المنيف السامي الخاقانيّ لا زال نافذاً في المشارق والمغرب إلى الجناب الأمير الكبير الأمجديّ... نسل السلالة الهاشميّة فرع الشجرة الزكية النبوية... سيد الأمراء الأشراف في العالمين نصير الغزاة والمجاهدين ظهير الملوك والسلاطين المحصّن بمزيد عناية الملك المبين الأمير (كذا) عبدالملك الوالي (كذا) يومئذ بولاية (كذا) فاس أدام الله تعالى سعده وانجح قصده... بالانتساب إلى جانبنا الشريف العالي السلطانيّ، والاستناد إلى بابنا المنيف السامي الخاقاني.... وتحصل مرادكم.... فالواجب عليكم وعلى من لديكم بمقابلة هذا لمن وأعلى (كذا) عليكم، أن تكونوا في جادة الصداقة... وطريق الاستقامة ثابتين ودائمين. وتعينوا الغزاة المؤمنين، وكماة الموحدين، وتستحضروا السفاين (السفن) العديدة المسلحة، وتعينوا للسفاين التي تمر من جانب أعتابنا العلية ... وتتفقوا احسن الاتفاق والاتحاد مع أمير الكرام حسن باشا... الوالي يومئذ بولاية جزائر الغرب، وتدفعوا مضرة الأعداء، وكيد الكفرة، وسائر الأشقياء وتبذلوا غاية جدكم وتصرفوا نصر جهدكم في طريق الغزاة والجهاد وإصلاح أحوال الرعايا وسائر إنقاذ البلاد حتى تكونوا مستاهلين الالطاف العلية ومستوجبين لأصناف الاعطاف الجزيلة، فان الله تعالى لا يضيع اجر المجاهدين).

وجاء في الرسالة الثانية: (هذا كتابنا الشريف العالي السلطانيّ وخطابنا المنيف الخاقانيّ لازال نافذا بالعون الرباني ومطاعاً له في القاصي والداني... إلى الجناب الأميريّ (كذا) الهماميّ الكبيريّ... الأصليّ الحسبيّ العريقيّ النسبيّ، نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكيّة النبويّة... مولاى عبدالملك الحكم (كذا) يومئذ بولاية (كذا) فاس ومرانقوش (كذا) – مراكش - ... فان كنتم على قدم الصداقة قائماً، وساق الاستقامة ثابتاً دائماً في الانتماء والانتساب إلى أبوابنا العالية الاعتاب، لحصل لكم الارتقاء على الشأن، ويكون أركان المودة بيننا مرصوص البنيان، وبنيان المحبة سديد الأركان، فلما آل الحال إلى هذا المآل وجب عليكم وعلى كلّ من كان لديكم أن يجتهد في تشييد مباني الإخلاص ومعاقد الاختصاص، ويعامل مع أمير الأمراء الكرام حسن باشا دام الله إقباله وحسنت خصاله... حسن المعاملة والاتفاق العاري عن سوء الشقاق فيما يتعلق بضمانة عرض الدولة والدين وأحكام الشرع المبين. وإذا أحضرنا من سدتنا السنية لدفع ضرر الأعداء عن تلك الديار أو للجهاد مع الكفار سفنا... فعليكم أن تعاونوا إياهم بالعساكر وآلات الحرب والذخائر وغيرها...)[٨].

استمرت العلاقات المغربية – العثمانيّة على طابع الودّ، وموالاة السلطان العثمانيّ على الرغم مما أبداه بعض العثمانيين من الموالاة للسلطان المخلوع محمد المتوكل، وانضمام البعض الآخر إلى التمردات في السوس جنوب المغرب، ومشاركة آخرين في الهجوم الذي شنه الوالي العثمانيّ رمضان باشا عام

(٨) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج٨ ص٤٥ – ٤٧.

١٥٧٧ على شرق البلاد. إلاّ أنّ السلطان العثمانيّ عزله[٩].

أدى لجوء محمد المتوكل إلى البرتغال والأسبان، لمساعدته على استرداد عرشه إلى قيام كلتا الدولتين بنصرته، وتعبئة قوى أوربية متعددة الجنسيات وراء ملك البرتغال سباستيان. وقد جاء ذلك الدعم في محاولة لتعزيز مواقعهما في البلاد، والحصول على مكاسب اكبر من خلال محمد المتوكل، والقضاء على التحالف العسكري المغربيّ – العثمانيّ، وإبعاد العثمانيين عن المغرب للانفراد بالسيطرة عليه.

ففي مطلع آب – أغسطس – ١٥٧٨. هاجم ملك البرتغال المغرب من الشمال براً وبحراً بقواته البرتغالية، والقوات الأوربية المتحالفة، والتي بلغ عددها (١٢٥) ألف جندي من غير رجال البحرية[١٠] فيما قاد القوات المغربية (٧٠ ألف مقاتل و ٣٠ ألف فارس) والقوات العثمانية المتحالفة معها[١١]، السلطان المغربيّ المعتصم بالله عبدالملك. والتقى الجانبان في ٤ آب – أغسطس – ١٥٧٨ في معركة (وادي الخازن)، والتي سميت معركة الملوك الثلاثة. ودارت واحدة من أمجد معارك العرب في تأريخهم الحديث. وحقق المغاربة انتصاراً ساحقاً، توفي على أثره مباشرة السلطان المغربيّ عبدالملك، فيما قتل محمد المتوكل وملك البرتغال.

(٩) الفشتالي، المصدر السابق، ج١ ص٣٤.

(١٠) الجمل، المصدر السابق، ص١٧٧ – ١٨٠.

(١١) كان عدد القوات العثمانية، (٦) آلاف جندي من الرماة، وألف جندي من الزواوة، و ٨٠٠ فارس، فضلاً عن اثني عشر مدفعاً.

وتمّ انتصار المغاربة بقيادة أبي العباس أحمد الذي لقب بالمنصور بعد انتهاء معركة وادي المخازن[١٢].

وجّه أبو العباس أحمد مع فجر الانتصار المغربيّ على الحملة الصليبية تلك، بشائر النصر إلى السلطان العثمانيّ مراد الثالث، سلطان الروم والمشرق، يخبره فيها (بما هيأ الله من نصر دينه، وإعلاء كلمته، والاستيلاء على أحزاب الشرك وطواغيت الكفر) إلى جانب هدايا كثيرة لوالي الجزائر[١٣].

العلاقات المغربية - العثمانية بين الودّ الظاهريّ، والصراع الخفيّ:

تولى الحكم في المغرب السلطان أبو العباس أحمد المنصور (١٥٧٨ - ١٦٠٣) بعد دخوله العاصمة وإعلان البيعة له. وسرعان ما جاءته الوفود المهنئة من مختلف أقطار الوطن العربيّ، والعالم الإسلاميّ، وحتى الأوربيّ. وجاء الوفد العثمانيّ في تموز – يوليو – ١٥٧٩. وكان يضم عدداً من عليّة القوم بصحبة الشيخ أبي الطيب العسكريّ الجزائريّ. وقد حمل الوفد هدايا ثمينة من الملابس الفاخرة، وسيف محليّ فاخر الصنعة موشى بالحلي والزينة. وكانت هدية

---

(١٢) انظر بالتفصيل عن المعركة:

اليفرني، النزهة، ص٤٧ _ ٤٩، ١١٤؛ الناصري، المصدر السابق، ج٥ ص٦١ _ ٦٤؛ كريم، المصدر السابق، ص٩٧ _ ١٢١؛ ابن تاويت، وثيقتان .. ص٤٨؛ أعراب، المصدر السابق، ص٩٠ _ ٩٦؛ مدينة، المصدر السابق، ص١٠٨ _ ١١٠؛ حركات، المغرب، ج٣ ص٦١؛ المدني، المصدر السابق، ص٤٠٤ _ ٤٠٧،

محمد الفاسي: موقعة وادي المخازن الحاسمة، مجلة البحث العلمي، العدد (٩) كانون الأول _ ديسمبر - الرباط ١٩٦٦، ص٢٢٢.

(١٣) الفشتالي، المصدر السابق، ص٦١.

السلطان العثمانيّ أصغر شأناً من هدايا الوفود الأخرى، ولا سيما مصر والحجاز أو بعض الدول الأوربية. لذا فقد أنف السلطان المغربيّ من هدية السلطان العثماني، وتأخر في الردّ عليه، ممّا أوجد حالة من النفور بين الجانبين. وكانت خلفية ذلك النفور تعود إلى مناوأة القوات العثمانيّة لتولية أبي العباس أحمد للسلطة في المغرب وأرادوها للأمير إسماعيل بن السلطان عبدالملك، والذي كان آنذاك موجوداً في الجزائر. ويبدو أن ذلك قد تمّ بدفع من الوالي الجزائريّ حسن باشا البندقيّ الذي تزوج أرملة المعتصم بالله عبدالملك واحتضن الأمير إسماعيل لغاية بعيدة المدى. كما أن قسماً من القوات العثمانية أسهمت في دعم داود بن عبد المؤمن، وهو ابن أخ السلطان أحمد في تشرين أول – أكتوبر – ١٥٧٩. وكل ذلك أسس للنفور بين السلطانين، والتنصل عن كل وعد مسبق قطعهُ للعثمانيين في أثناء وجوده في الجزائر وقاده ذلك إلى تأكيد موقف مسبق بعدم الاعتراف بالسيادة العثمانيّة(١٤).

عمل السلطان المغربيّ أحمد المنصور على توطيد السلطة المركزيّة في الداخل؛ لمواجهة الاعتداءات الأسبانيّة والبرتغاليّة. واستطاع القضاء على تمرد داود بن عبد المؤمن عام ١٥٨٠، وتوجه نحو الشمال لمواجهة القوات الأسبانيّة التي استغلت انشغال المغاربة في معركة وادي المخازن، فاكتسحوا سبتة وطنجة وأصيلا والجديدة، فاتسع نفوذهم. كما تمكنوا عام ١٥٨٠ من تصفية النفوذ البرتغاليّ في المغرب، وضمّ البرتغال إلى التاج الأسباني.

(١٤) الناصري، المصدر السابق، ج٥ ص٩٥؛ التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج٨ ص٤٧ – ٤٩؛ كريم، المصدر السابق، ص١٠٩ – ١١٠؛ الجمل، المصدر السابق، ص١٨١ – ١٨٤؛ غرايبة، المصدر السابق، ص٣٨، حسن، المصدر السابق، ص٢٤٤ – ٢٤٥.

أدى تصاعد الموقف العسكريّ الأسبانيّ إلى قيام السلطان العثمانيّ مراد الثالث بمراسلة السلطان المغربيّ أحمد المنصور في أيلول – سبتمبر – ١٥٨٠، لعقد تحالف عسكري ضدّ الأسبان، وإمداده. بأسطول حربي وقوات عسكرية. وجاء في رسالة السلطان العثمانيّ: (... فلما وصل مسامعنا الشريفة ومشاعرنا الخاقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة، وأنه احتوى على سلطنة برتغال أوكاد، وأنه جعل أهلها في الأغلال والأصفاد، وأنه لكم جار وعد و مضرار، حركتنا الحمية الإسلاميّة ... لإظهار الألفة الأزليّة ... أن نتخذ عهدا ... ونؤكد أن المملكتين محرستا الجوانب ... ونعلق العهد بالكعبة المنورة والحضرة المعظمة فإذا تمّ هذا الشأن ... نوجه إليكم ثلاثمائة غراب (سفن) سلطانية، وجيش عز ونصر وكماة عثمانية تستفتح بها إن شاء الله بلاد الأندلس)[١٥].

تشير المصادر إلى أن السلطان المغربي (تثاقل) في الرد وإقامة تحالف عسكري مع العثمانيين ضدّ الأسبان. وعزا البعض أسباب ذلك إلى انشغاله بتهدئة الأحوال والقضاء على التمردات الداخلية والفساد. إلى جانب ما بلغه من رغبة العثمانيين في السيطرة على المغرب من خلال اتصال والي الجزائر مع المتمرد داود عبدالمؤمن وهو ما كشفته رسالة الوالي بتاريخ أيار – مايو – ١٥٨٠[١٦].

استغل أمير البحر علوج باشا (بايلر باي شمال أفريقيا)، التثاقل المغربيّ لأيغار قلب السلطان العثمانيّ مراد الثالث على السلطان المغربيّ، ووصفه بـ (الغادر). وكان ذلك لإيجاد تسويغ لضم المغرب،، وبما يتوافق مع رغبة مسبقه، وللردّ على (الإهانة !!) التي لحقت بالوفد العثمانيّ المهنئ. فجهز أسطولاً ليبحر

(١٥) التازي، التأريخ الدبلوماسي، ج٨ ص٤٩.

(١٦) التازي، المصدر السابق، ج٨ ص٥٠؛ كريم، المصدر السابق، ص١١١.

إلى الجزائر، ومنها للهجوم على المغرب في عام ١٥٨١. وفي الوقت نفسه، عمل السلطان المغربيّ على تحسين المواقع الساحليّة والحدوديّة مع الجزائر، واستنفار الجيش المغربيّ. ومن جهة أخرى بدأ يحاور الأسبان حول مشروع اتفاقية هدنة لمدة عشرين عاما والتخلي عن العرائش مقابل الجديدة. ومن أجل تثبيت السلطة المركزية، مال إلى العمل السياسيّ، لحلّ الخلاف مع العثمانيين ولم يرغب في تصعيد الموقف لئلا يضع نفسه بين طرفي كماشة. فبعث إلى استانبول سفارة عاجلة لمعرفة الموقف تتألف من كاتبه أحمد بن يحيى الهوزاليّ، وبمعية القائد أبي العباس احمد بن ودة العمريّ.وقد حمل الوفد هدية عظيمة إلى السلطان العثمانيّ، كما عرف أثناء لقائه بالسلطان بنوايا المغرضين. كما أرسل سفارة ثانية إلى استانبول في العام نفسه برئاسة القاضي العلامة أبي القاسم بن علي الشاطبيّ وبمعية القائد أبي زيد عبدالرحمن بن منصور بن سعيد الشيظمي المريديّ. ولقيت السفارة المغربية ترحاباً كبيراً من قبل السلطان مراد الثالث ورجال قصره. ودعا الوفد في أثناء لقائه بالسلطان العثمانيّ إلى اتحاد كلمة الإسلام. وقد حمّل السلطان العثمانيّ الوفد المغربيّ هدية ورسالة جوابية إلى السلطان المغربيّ كتبها بخط يده باللغة العربية، ودعا فيها إلى ذلك أيضا، وقال في رسالته: (لك عليّ العهد أنْ لا أمدّ يدي إليكَ إلا للمصافحة، وأنّ خاطري لا ينوي لك إلا الخير والمسالمة)[١٧]، كما أرسل السلطان المغربيّ رسالة إلى والي الجزائر حسن باشا، ورسالة أخرى إلى علوج باشا. وقد كشفت الرسائل عن طموح علوج باشا إلى ضمّ المغرب والقيام بحركة انفصالية في المغرب العربي تستقل عن الباب العالي. وكان من نتائج ذلك

(١٧) الناصري، المصدر السابق، ج٥ ص٩٧؛ كريم، المصدر السابق، ص١١٢.

الموقف الدبلوماسيّ للسلطان المغربيّ أنْ هدأت الأمور بين المغرب والدولة العثمانية حيث مال الطرفان إلى ذلك[١٨].

إن ميل السلطانين المغربيّ والعثمانيّ للعمل السياسيّ وهدوء الأحوال يأتي من شعورهما بأهمية التضامن والاتحاد الإسلاميّ في مواجهة المخاطر الأوربية المشتركة. لذا سادت بين المغرب والدولة العثمانية علاقات ودية بعد أن بعث السلطان العثمانيّ مع الوفد المغربيّ بهدية ورسالة. وإذا كان ذلك هو موقف السلطان العثمانيّ، إلاّ أن الأجهزة الإدارية العليا سواء في استانبول أو ولاة الجزائر كانوا يسعون دائماً إلى توتير العلاقات بين السلطانين وبالاتجاه الذي يدفع إلى محاولة العثمانيين لضم المغرب. فقد ظلّ علوج باشا يحاول الاعتداء على المغرب، ودبر مؤامرة جديد عام ١٥٨٢، بالتعاون مع جعفر باشا والي الجزائر كان هدفها القيام بهجوم على المغرب، إلاّ أنّ مساعيهما فشلت[١٩] ومن جهة أخرى وبعد أن اطمأن السلطان المغربيّ من العثمانيين، بدأ يماطل في المفاوضات المغربية – الأسبانيّة، وكان لتطور علاقاته مع بريطانيا وإمداده بالسلاح والعتاد إلى جانب المبادلات التجارية، أثرها في تعزيز موقفه تجاه الأسبان الذين يقودون المعسكر الكاثوليكيّ، في وقت كانت بريطانيا تتزعم المعسكر البروتستانيّ. وهكذا استطاع بدبلوماسيته الخارجية أن يبعد المغرب عن أي عدوان

(١٨) ينظر نص الرسائل وتفاصيل الأحداث:

التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج٨، ص٥٠ _ ٥٤؛ حركات، المغرب، ج٣، ص٣٤٢ _ ٣٤٣؛ عبد العزيز بن عبد الله؛ العرش المغربي، ص٥٥.

(١٩) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج٨ ص٥٤؛ كريم، المصدر السابق، ص١١٢.

عثمانيّ أو أسبانيّ يستهدف البلاد، وساعده ذلك على توطيد حكمه في الداخل، ومن ثمّ الحفاظ على استقلال المغرب[٢٠].

استمرت العلاقات المغربية – العثمانية قائمة على أساس السلام والصداقة، وتبادل الجانبان الرسائل والوفود والهدايا خلال ثمانينات القرن السادس عشر. وكان من بين الرسائل التي بعث بها السلطان العثمانيّ مراد الثالث رسالة عام ١٥٨٥ يخبره فيها بانتصار العثمانيين على الصفويين في بلاد فارس ايام عباس الكبير. وجاء جواب المنصور في رسالة بعث بها من إنشاء أبي فارس عبدالعزيز بن محمد القشتالي، عبّر فيها عن الفرح والابتهاج الكبير على ذلك النصر، كما شجب بشدة حركة الصفويين. وممّا جاء في رسالته: (... وهذا وقد وفد على مقامنا خطابكم الخاقانيّ، ومدرجكم العليّ السلطانيّ ... فأطلع في آفاق هذه الايالة العلويّة فجر الموالاة والاتحاد.. ولما فُضّ بأنامل الترحيب والإقبال ختامه.. كان ممّا أنهاه إلينا من الأنباء التي تبتهج النفوس لسماعها، وتستميل الأفئدة الإيمانيّة بحسن إبداعها... إهداء البشارة العظمى والمسرة الكبرى، بما سنى الله لمقامكم الخاقانيّ من الظهور على الفئة الصفوية... وتبديد جموعها ... فيالله من بشارة تزهو بها السنة والأيمان، وترتاح لسماعها ملائكة الرحمن، وتفتح لها أبواب حضرة الرضوان، ونبأ عظيم أقام للمسرة أسواقا، وأورق به عود الأيمان ايراقاً... فهنيئاً بما سنى الله لمقامكم من هذه المفاخر الفاخرة... وشكرنا لمقامكم حسن المساهمة في سرورها الذي أوسع الصدر انشراحاً... فإننا ممن يتضاعف بذلك سروره، ويبتهج بأنبائكم السارة أفئدته وصدوره...)[٢١].

---

(٢٠) كريم، المصدر السابق، ص١١٢ _ ١٢١.

(٢١) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج٨ ص٥٥ _ ٥٦.

وجاءت وفاة أمير البحر علوج باشا عام ١٥٨٦، لتنهي لقب البايلر باي، وتعوضه بنظام الباشوات، والذي يعني العودة المباشرة إلى العاصمة استانبول، ووضع حدّ لكلّ تطلع إقليمي للعثمانيين تجاه المغرب. وزاد ذلك من أواصر الودّ بين الجانبين حيث استمرت الرسائل والوفود، ففي عام ١٥٨٨، توجهت سفارة مغربية برئاسة احمد بن ودة والشاطبيّ والشياظميّ وأبي الحسن علي التمكروتيّ إلى العاصمة العثمانية، وفي أوائل عام ١٥٨٩، استقبل السلطان المغربيّ سفيراً عثمانيّاً. وفي أواخر عام ١٥٨٩، تحركت سفارة ثانية إلى السلطان العثمانيّ مراد الثالث ضمّت أبا الحسن الجزولي، والكاتب الفشتاليّ، ومحمد بن علي بن أبي القاسم، وقد حمل الوفد المغربيّ هدية عظيمة ودعوة إلى تمتين أواصر العلاقة وطرقها للمرحلة المقبلة. وقد عاد الوفد المغربيّ معززاً مكرماً في ١١ حزيران – يونيو ١٥٩٠. واستمر تبادل الهدايا والوفود بين العاصمتين أو بين السلطان العثمانيّ ووالي الجزائر[٢٢].

وقد سجل التمكرونيّ مذكراته – رحلته – التي اسماها (النفحة المسكيّة) أحوال الشعب العربي في تونس ومصر من خلال لقاءاته بأعيان البلاد الموجودين في العاصمة العثمانية، واشتياقهم إلى حكم الشرفاء، وبيّن مظالم الولاة العثمانيين تجاههم حيث قال: (... لقد رأينا منهم العجب العجاب في كثرة اشتياقهم، وحنينهم إلى حكم موالينا الشرفاء، وما كان فيه أهل المغرب من الراحة والعدل والرفق والنعمة، تالله لقد كان من تحدثنا معه من خيار أهل تونس، واعيان مصر الذين لقيناهم بالقسطنطينية – استانبول – يبكون على ذلك بالدموع، وينتحبون ويودون لو

(٢٢) الفشتالي، المصدر السابق، ج١ ص٩٩؛ التازي، المصدر نفسه، ج٨ ص٥٦، ٥٩ – ٦٥.

وجودوا سبيلاً إلى الانتقال إلى المغرب، والتخلص إليه لاشتروه بالدنيا وما فيها...)[٢٣].

استثمر السلطان المغربي احمد المنصور هدوء العلاقات مع العثمانيين وتفرغ لتقوية الجبهة الداخليّة حيث اصبح المغرب قوة اقتصادية وعسكرية مكنته من مواجهة الاحتلال الأسبانيّ للعديد من موانئ البلاد. وقد حقق في عمليات التحرير نجاحاً كبيراً، و أظهرت للمغرب وزنا دوليا كبيرا.

ومن جهة أخرى، فقد سمحت فترة الهدوء في العلاقات المغربيّة – العثمانيّة، واستمرار طابع الودّ والوئام، إلى جانب القدرة على مواجهة الاحتلال الأسبانيّ، بتوجه السلطان المغربيّ نحو الجنوب في (السودان الغربي) ومنذ عام ١٥٩٠، حيث توالت عليه الرسائل لمّد فتوحاته إلى تلك المناطق، ومساندة القوى الإسلاميّة ونشر الإسلام في تلك الربوع التي لم يصل إليها الإسلام.

ان فتوحات السلطان المغربي احمد المنصور في (السودان الغربي) لم تكن ذات طابع اقتصاديّ أو توسع إقليمي في مناطق جنوب الصحراء حتى بلاد النوبة، كما يحاول البعض إشاعته. وعلى الرغم من أهمية العامل الاقتصاديّ في تعزيز قوة الدولة، ومواجهة التحديات الأوربية التي تستهدفها حتى في تلك المناطق، إلا أن دراسة معمقة لشخصية أحمد المنصور توضح بجلاء حقيقة (الفتح الإسلامي) في غرب أفريقيا على ساحل المحيط الأطلسي غرباً حتى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة جنوب السودان الحالية. وكان العامل الأساس للحملات المغربية (التكوين النفسيّ الدينيّ والقوميّ للمنصور السعدي، واستشعاره المسؤولية كأمير للمؤمنين

(٢٣) التمكروتي، النفحة المسكية، ص٧٢، عن: التازي، المصدر نفسه، ج٨ ص٥٦.

في توحيد كلمة المسلمين، والجهاد في سبيل الله، ونشر الإسلام والعدالة، وتحرير الإنسان المسلم بممالك السودان. ومحاربة الكفر والسحر والشعوذة). وتوضّح ذلك العامل المهم في فتوحاته، الرسائل التي أرخت للأحداث، والتي تؤكد أن العامل الدينيّ كان الأساس في التحرك المغربي جنوباً نحو بلاد السودان الغربيّ، إلى جانب عوامل اقتصاديّة واستراتيجيّة خاصة بتأمين الحدود الجنوبيّة ضدّ النفوذ والوجود البرتغالي والأسبانيّ على سواحل المحيط الأطلسيّ[٢٤].

وفي الوقت نفسه استمرت العلاقات الوديّة بين المغرب والدولة العثمانيّة حتى بعد رحيل السلطان العثمانيّ مراد الثالث، وتولي السلطان محمد الثالث الحكم (١٥٩٦ - ١٦٠٣) في الدولة العثمانيّة. وكان ذلك مناسبة لتجديد المراسلات والاتصالات بين الجانبين. فقد أرسل السلطان العثمانيّ محمد الثالث، رسالة إلى السلطان المغربيّ يعلمه بالأمر. ورد الأخير برسالة تعزيه وتهنئة في الوقت نفسه، كما أرسل الصدر الأعظم المغربيّ رسالة تهنئة بمناسبة جلوس السلطان محمد الثالث. وقد جاء في رسالة السلطان المغربيّ من إنشاء كاتبه الفشتاليّ: (... ورد على مقامنا كتابكم الأثير، وخطابكم الجليل الخطير، فعهدنا بحضرتنا العلية مهاد إلا جلال والتعظيم، وأشدنا به إشادة ملأت مسامع الظاعن والمقيم، وأن الذي أنهاه إلينا من النبأ الذي أمر وأحلى وأوحش وأسلى التعريف بوفاة ولينا والدكم المقدس المنعم الأعظم الأفخم السلطان فلان قدّس الله تُربتهُ وآنس به أطباق

---

(٢٤) ينظر للتفصيل:

عثمان عثمان إسماعيل: دفاعا عن الإسلام والمغرب والمنصور، مجلة دعوة الحق، العدد (٣)، نيسان – أبريل – ١٩٧٧، ص٩٢ – ١٠٣؛

الغربي، المصدر السابق، ١٠٨ – ١١٤، ١٢٥ – ١٢٦، ٢١٩ – ٢٨٧.

اللحود غربته، ثم الإعلام بولايتكم واستوايكم على تختكم واطمئناتكم على كرسي ملككم ... فتأسفنا لوفاة ولينا المرحوم والدكم، تأسف الصديق لصديقه، والأخ لشقيقه، والصاحب لوليه ورفيقه، ثم سررنا بولايتكم سروراً اضمحلّ له ذلك الأسف من بعد الرسوخ، وصار دليله في حكم المنسوخ ... وسنورد على أبوابكم إن شاء الله بعد هذا من قبلنا ارسالا أخرى ونوالي رسائل ودنا إليكم تترى، والله تعالى يجعل حبل الموالاة في ذاته وإعلان كلمته مديدا، وسيف الإسلام لطواغيت الشرك وأحزاب الكفر هناك وهنا مبيداً بمنه ...) والى جانب هذه الرسالة بعث السلطان المغربيّ، ومن إنشاء كاتبة الفشتاليّ برسالة أخرى إلى الصدر الأعظم العثمانيّ سنان باشا، وقد تضمّنت التهنئة بجلوس (مقام ولدنا السلطان محمد ابن السلاطين العظام ...)[٢٥].

أصبح للمغرب في عهد السلطان أحمد المنصور وزنٌ دوليّ كبير من خلال قوّته العسكريّة والاقتصاديّة وتطوره الحضاري في مختلف المجالات. وقد سعى إلى بناء قوة عسكريّة بحريّة فرضت هيبتها في غربي البحر المتوسط، وبدأ يتطلع – بعد تحرير موانى المغرب من الاحتلال الأسباني – إلى إعادة الأندلس. وقد ذاع صيت المنصور في الأقطار العربية الخاضعة للسيادة العثمانيّة. ووصلته رسائل من أمراء العرب توضح امتعاضهم من الولاة العثمانيين. كلّ ذلك جعله يتطلع إلى المجال القوميّ والدينيّ والحضاريّ للمغرب. ومن هنا بدأ السفزوع التأريخيّ للمغرب بإمارة العرب المسلمين يعزز موقفه في ذلك، الانتماء إلى النسب الشريف، (فالمنصور كان يرى نفسه خليفة مستمداً سلطة الخلافة من نسبه)[٢٦].

---

(٢٥) التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج٨ ص٦٧.

(٢٦) حركات، المغرب، ج٣ ص٢٩٨؛ التازي، التاريخ الدبلوماسي، ج٨ ص٦٩ _ ٧٠.

قام السلطان أحمد المنصور بمراسلة علماء العرب وفقهائهم واستدعاهم إلى المغرب، ودعاهم إلى توحيد الكلمة. كما أرسل الدعاة المغاربة إلى مصر والحجاز والشام والعراق من بينهم سفراء وحجاج وطلاب ورحالة، ليتحدثوا عن المغرب وأحواله في عهده، ونشاط المغرب في مقاومة التسرب الأجنبي للبلاد، وجهود السلطان أحمد المنصور في السودان الغربي، وعمله على توحيد الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا تمهيداً لاسترجاع الأندلس، إلى جانب الدعوة إلى إمارته للمسلمين. وقد حقق السلطان المنصور نجاحاً ملحوظاً، حيث (صارت العرب من كلّ مملكة يفخرون بذلك على الترك بهذا الملك العظيم)، (وأهل الشرق قلوبهم بأجمعها مقبلة عليه، وعقولهم حاضرة لديه، وأحداقهم ناظرة إليه ...). وقد تمكن مبعوثو السلطان المنصور من استمالة عدد كبير من عرب المشرق، وكان كبار رجالاتهم من العراق والشام ومصر يعربون عن الولاء له، ولم يعد هؤلاء يقرون بشرعيّة (الخلافة العثمانيّة) لاشتياقهم إلى إمارته العربية ...) ولأن العثمانيين (من جملة المماليك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين، وجعلهم حصناً وسوراً للإسلام ... وقلدوا الأمر في الحقيقة نيابة وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها، وأهل لها موالينا وساداتنا الشرفاء). وكان المشارقة يدعون العناية الآلية بالتوفيق للعاهل المغربي، لبسط سلطانه على الوطن العربي (أيد الله دولته الطيبة الأعراق، وملكه من السوسن الأقصى إلى أقصى العراق)[٢٧].

(٢٧) أحمد بن محمد بن القاضي: المنتقى المقصور على مآثر مولانا المنصور، مخطوط، د. و. الرباط ٧٦٤د. عن: الغربي، المصدر السابق، ص١١٤ – ١١٦، وينظر كذلك: الفشتالي، المصدر السابق، ص٢٠٧، ٢٣٠، ٢٧٠، ٢٩٠، كريم، المصدر السابق، ص١٨٤-١٨٨؛ التازي، المصدر السابق، ج٨، ص٦٨-٧٣.

إنّ تطلعات السلطان المغربي أحمد المنصور وطموحاته، لم تخف على العثمانيين في مناطق نفوذهم في الوطن العربي، أو في مناطق السودان الغربيّ، وعليه فقد حاولوا عرقلة مساعيه في جنوب مصر والسودان، وأمدوا ملك برنو ألوما الثاني وغيره من أمراء تلك المناطق بالمساعدة؛ لمواجهة التغلغل المغربيّ. وفي الوقت نفسه أظهروا للسلطان المغربيّ روابط الودّ القائمة بينهما[٢٨]. وقد بقيت العلاقات بين الجانبين على تلك الشاكلة حتى آخر أيام حياة المنصور.

إن السلوك العثمانيّ المزدوج تجاه المغرب، في إظهار الودّ من جهة ومحاربته في السرّ من جهة أخرى ترجع إلى عدم قدرتهم على المواجهة العلنية للمغرب في تلك الفترة. فقد كانت بعض مناطق الوطن العربيّ (الشام – اليمن – طرابلس الغرب – تونس - الجزائر) ومنذ عام ١٥٩٠ ولاحقاً، في انتفاضات شعبية ضدّ الحكام العثمانيين، بسبب تعرضهم لشتى صنوف الظلم. كما أنّ السلطة المركزيّة العثمانيّة تعرضت لصراعات مع الحكام المحليين. كما تعرضت الدولة العثمانيّة لهجمات الصفويين من بلاد فاس. وفي الفترة نفسها تعرضت لهزائم في أوربا الشرقية (ترانسلفانيا – فالاشي - مولدافيا) فلم تعد قادرة على تهديد المغرب[٢٩].

استمرت العلاقات المغربيّة – العثمانيّة على تلك الحالة حتى مطلع القرن السابع عشر حين توفي السلطان المغربيّ أحمد المنصور في ١١ ربيع الأول عام ١٠١٢هـ، الموافق ٢٠ – آب – ١٦٠٣م، (وهو ينّ من الحبّ المفقود بينه وبين

(٢٨) كريم، المصدر السابق، ص١٨٩.

(٢٩) الدسوقي، المصدر السابق، ص٨٧-٨٨؛ كريم، المصدر السابق، ص١٩٢-١٩٣؛ الغربي، المصدر السابق، ص٩٦-٩٧.

اسطنبول وولاتها في الجزائر)، حيث يتوضح ذلك من رسائله إلى ولي عهده بابا الشيخ في عام ١٦٠٢[٣٠].

وعلى كل حال، وعلى الرغم من موقف الدولة العثمانية من المغرب، سلاطين وأمراء طوال نصف قرن، إلا أنّ المغرب لم يتحالف مع أيّ من القوى الأوربية لمواجهة العثمانيين حتى في أشدّ حالات العداء بينهما. وإذا كان ثمة هدنة أو اتفاق بين المغرب وإحدى الدول الأوربية، فإنّ ذلك كثيراً ما تمّ على حساب المغرب إما لتثبيت السلطة المركزية، أو لمواجهة التوسع العثماني.

إنّ ذلك الموقف المغربيّ كان ينطلق من مرجعية دينية تؤمن بالأخوة الإسلامية ضدّ أعداء الإسلام. وتؤكد ذلك تقارير السفراء والممثلين الأجانب بالقول: (إننا مهما بذلنا من عروض للمغرب فسيظل عطفه على الايالات العثمانية هو نفسه بالرغم ممّا يلحقه من مضايقات من الأتراك – العثمانيين -. إننا عندما نتحدث إلى المغرب بما يبيّت له من طرف الأتراك، لا يتردد في القول بأن باستطاعته أن يقف ضدّ كلّ تحرك يستهدف النيل منه، ولكنه لا يستطيع أن يمضي حلفا ضدّ إخوانه في الدين)[٣١].

ويؤكد ذلك الاتجاه أيضاً، رسالة حررت بتأريخ ١٦ كانون أول – ديسمبر – ١٦٠٥ من طرف السفير الهولندي كوى Coy المعتمد في المغرب.

(٣٠) اليفرني، المصدر السابق، ص١٧٤-١٧٨؛ التازي، المصدر السابق، ج٨ ص٧٣-٧٤.

(٣١) عبدالهادي التازي: وحدة المغرب العربي من خلال الوثائق الدبلوماسية، مجلة دعوة الحق، العدد ٢٧٨،آذار – مارس – ١٩٩٠، ص٧٨.

ففي تعليقه حول مهمة المبعوث الأوربي شيرلي إلى المغرب، قال: (لقد كانت مهمة شيرلي تتركز على إقناع المغرب لمناهضة الأتراك وطردهم عن الشمال الأفريقي ...) واستنتج السفير الهولندي (إنّ المطلب لابدّ أن يجابه بالرفض من طرف العاهل المغربيّ الذي اعتاد على أن لا يحالف أحداً من المسيحيين ضدّ المسلمين ... اللهم إلاّ إذا كان الأمر يتعلق بدفاع عن كيانه... ومع ذلك فقد كان يهدد ولا ينفذ)(٣٢).

بعد وفاة السلطان المغربيّ أحمد منصور، دخل المغرب في صراع داخليّ بين أبنائه الثلاثة وأحفاده. كما ظهرت الزعامات المحليّة الدينيّة والعسكريّة (السملاليّة – الدلائية – العياشيّة، وغيرها)، إلى جانب التدخل الأوربيّ عامة والأسباني خاصة. وعلى صعيد الخارج، فقد أنشغلت الجزائر (العثمانية) بمواجهة تحديات القوى الأوربيّة في البحر المتوسط، وحققت في ذلك نجاحات باهرة. وظهرت الجزائر في النصف الأول من القرن السابع عشر قوة بحرية يحسب حسابها في البحر المتوسط. وقد استمر الصراع الداخليّ في المغرب حتى مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشر حيث انتهى آخر سلاطين السعديين وهو العباس أحمد(٣٣).

إنّ الفوضى الداخلية التي نجمت عن الصراع على السلطة بين الأمراء السعديين، وبقاء الأطماع الأجنبية وتصاعدها في المغرب، لم

(٣٢) عبدالهادي التازى: سفارة انطوني شيرلي إلى المغرب وعلاقتها بالتدخل الأوربي في منطقة الخليج، مجلة المناهل المغربية، العدد ٩ تموز – يوليو – ١٩٧٧، ص٩٤ – ١٠٣، التازى، وحدة المغرب العربي، ص٧٩، التازى، التاريخ الدبلوماسي، ج٨ ص٨٢-٨٦.

(٣٣) ينظر للتفصيل: الجمل، المصدر السابق، ص١٩٥-٢٠٧.

يحلّ دون استمرار الاتجاه الذي يسعى إلى إنقاذ المغرب بتوطيد الأمن والاستقرار، وتحقيق الوحدة السياسية، والدفاع عن السيادة والاستقلال. فساعد ذلك على بروز قيادة جديدة في الميدان تمثلت بالأشراف العلويين في جنوب المغرب ومنذ عام ١٦٣١. وبدأت صفحة جديدة من العلاقات المغربيّة – العثمانيّة، وكان ذلك لانتقال الصراع بين الجانبين إلى صراع إقليمي بين إيالة الجزائر (العثمانيّة) والمغرب العلويّ، فيما انشغلت العاصمة العثمانيّة بمواجهة التحديات لنفوذها في وسط أوربا وشرقها، وفي بلاد فارس أيضاً.